منارات
manarat

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير
فخري كريم

ملحق ثقافي اسبوعي يصدر عن جريدة المدى

العدد (4599) السنة السابعة عشرة - الأربعاء (29) كانون الثاني 2020

WWW. almadasupplements.com

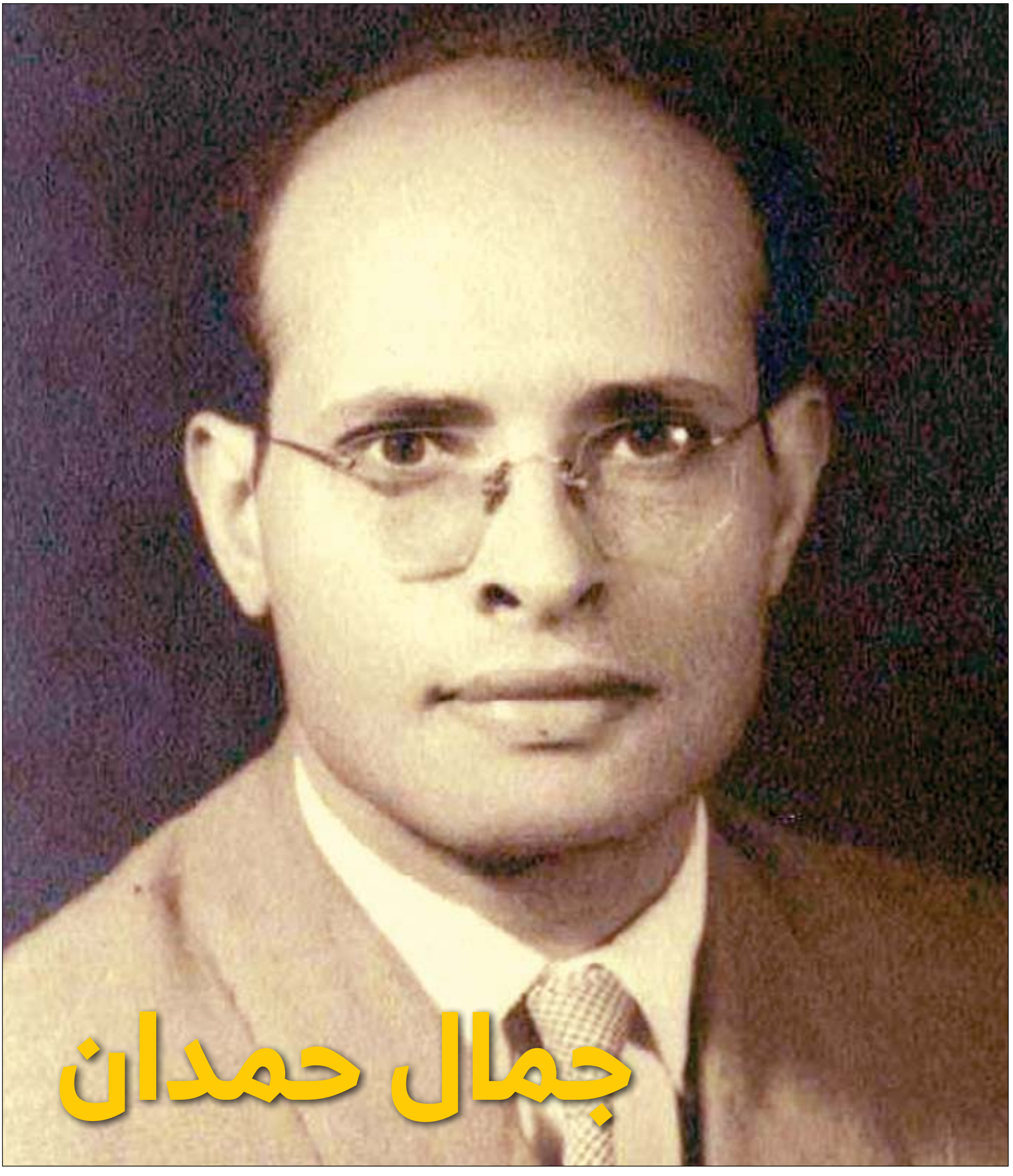

جمال حمدان

جمال حمدان آمن بعبقرية أهل النيل وتحولات العالم

الناظر بإمعان إلى كتابات حمدان ومنهجه ونظمه الجغرافي؛ يجد أنه كان قد حلَّق بعلم الجغرافيا إلى آفاق بعيدة، لم يستشعر بها أحد من أقرانه الجغرافيين قبله، فحمدان هو روح الجغرافيا الجديدة المتجددة دائمًا وأبدًا، مع أن كتاباته تميل إلى النسق العلمي المتسق بالأدب. أعمال حمدان تميزت بالعمق الفكري والقدرة على استشراف المستقبل، وليس هذا من قبيل التنجيم أو ما شابه ولكنه كان يعتمد في الأساس على المنهج التحليلي فكان يدرس الظاهرة بحيادية شديدة، فيأخذ مقوماتها وعواملها التاريخية ويحلل عصرها ثم يقوم بوضع الاستنتاجات العلمية لها.

محمد غنيمة

ولد جمال حمدان في العام ١٩٢٨ ويعدّ أحد أعلام الجغرافيا المصريين، ولكنه كما قيل، لم يكن مجرّد أستاذ للجغرافيا في جامعة القاهرة، بل كان مفكّرًا وعالمًا أفنى عمره كلّه باحثًا عن ينابيع العبقريّة في الشخصية المصرية، محلّلًا للزمان والمكان والتاريخ الذي أدى إلى حفاظ تلك الشخصية على مقوماتها.

كان حمدان يرى أن مصر تحوَّلت من أول أمّة في التاريخ إلى أول دولة، ثم أول إمبراطورية، وتوصل إلى تلك الحقائق من خلال دراسات جادة وأبحاث متعمقة، درس في كلية الآداب- قسم الجغرافيا، وتخرَّج منها في العام ١٩٤٨ ليعُيَّن معيدًا بها، ثم يسافر إلى بريطانيا في بعثة لدراسة الدكتوراه في العام ١٩٥٣، وكانتْ أطروحته بعنوان "سكان الدلتا قديمًا وحديثًا".

كتاباه "دراسات عن العالم العربي" و"جغرافيا المدن"، كانا أول ما سلّط الضوء على عمله المتميز، ليحصل على جائزة الدولة التشجيعية وعمره حينها لم يتجاوز ٣١ سنة.

ترك جمال حمدان إرثاً عظيماً، ليس أضخمه موسوعته "شخصية مصر. دراسة في عبقرية المكان"، و"دراسات في العالم العربي" و"أنماط من البيئات" و"المدينة العربية" و"بترول العرب" و"بين أوروبا وآسيا، دراسة في النظائر الجغرافية" وكذلك "في الاستراتيجية العالمية" وغيرها. ومن بين رؤاه وتنبؤاته الاستراتيجية يبرز مصير القوى العظمى التي كانت سائدة في زمن جمال حمدان، الذي رسم فيه مسار تلك القوى في العالم بناء على تحليله لأسباب نشوئها ونموها ثم انهيارها.

تفكك الاتحاد السوفيتي

عندما صدر كتاب "استراتيجية الاستعمار والتحرير" الذي تنبأ فيه حمدان بانفصال الكتل الشرقية والغربية وسقوط الاتحاد السوفيتي كان ذلك في العام ١٩٦٨ أي قبل وقوع تلك الأحداث بواحد وعشرين عامًا حين ظهر زلزال العام ١٩٨٩ الذي هز أركان أوروبا الشرقية وانتهى بانهيار أجحار الكتلة الشرقية، وتباعد دولها الأوروبية عن الاتحاد السوفيتي، ثم تفكك وانهيار الاتحاد السوفيتي نفسه في العام ١٩٩١.

كان ذلك كله مسار جدل وانتقادات كثيرة، ولكن الأيام أثبتت ما كان يرمي إليه الدكتور جمال حمدان، حيث كان يعتقد بأن تفكك الكتلة الشرقية واقع لا محالة، بالرغم من أن الجزء الأخير من كتابه هذا يتكلم استراتيجيا عن هذه الفكرة، قال حمدان "إذا كانت عقدة روسيا الجغرافيا – التاريخية الكبرى والتقليدية، هي الشعور بالحصار المحكم الخانق بين محيطات متجمدة في الشمال وجيران غير أصدقاء من سائر الجهات، وإذا كان حجم الرقعة الهائل وأبعاد الامتداد القاري، هو الحماية المعوّضة التي حلت تلك العقدة، فإن العصر النووي قد جاء أخيرًا وعلى النقيض، ليعقّدها من جديد بل ويضاعفها أضعافا. فبعد أن كانت روسيا فيما مضى تملك الدفاع بالعمق وتستطيع أن تشتري الزمان بالمكان، وتستدرج العدو الغازي إلى العمق وإلى مقتل محقق، فإن عصر الصواريخ النووية قد حيّد عامل الحجم والضخامة وسلب المكان عمقه دون أن يوفر بالمقابل الأمن والأمان على امتداد الحدود المترامية. ليس هذا فحسب، بل إن الاتحاد يجد نفسه اليوم محاصرًا نوويًا من كل الجهات تقريبًا: الصين شرقًا وأوروبا الغربية والولايات المتحدة غربًا، بما في ذلك الأساطيل النووية على جانبيه في الأطلسي والهادي والهندي، هذا بالإضافة إلى تحالف أو تقارب هؤلاء جميعًا ضده".

استقالته من التدريس في الجامعة، تصبح بداية العزلة الذاتية التي فرضها على نفسه؛ فلم يعد يستقبل أحدا في منزله في حي الدقي، متفرغا لدراساته وأبحاثه، حتى يوم ١٦ أبريل ١٩٩٣ حين عثر عليه محترقا داخل شقته، بعد تسرب الغاز من مطبخه، مع أن خبراء الطب الجنائي والشرعي، أكدوا أنه لم يمت بسبب الغاز ولا الحريق، لكن سببا غامضا يقف خلف إنهاء حياة العالم المصري المختلف

ويضيف حمدان "وهكذا بات على الاتحاد أن يحقق التفوق والردع النووي ليس فقط ضد الولايات المتحدة وحدها ولكن أيضًا ضد سائر الأطراف، كما صار عليه ابتداء أن يكسر حلقة الحصار تلك بأيّ ثمن أو وسيلة ومن هنا تتحدد أهداف الاتحاد في لعبة توازن القوى الجديدة في تفجير اللعبة عليهم جميعًا في الأساس وقلب المائدة على رؤوسهم بلا استثناء".

سقوط أميركا

نرى هذا النص من مذكراته التي جمعها الدكتور عبدالحميد صالح حمدان لأخيه في كتابه "جمال حمدان صفحات من أوراقه الخاصة": الولايات المتحدة (وهي بريطانيا القرن العشرين) تقع اليوم وتمر بنفس المرحلة التي كانت عليها بريطانيا أواخر القرن الـ١٩ (حوالي ١٨٧٠/١٨٨٠) وما بعدها حتى الحرب العالمية الأولى)؛ حيث كانت تتربع على قمة القوة وقوة العالم بلا منافس وتبدو مؤبدة هناك، بينما كانت تتراجع وتتصدع من الداخل وتنحدر بالتدرج غير المنظور، إلى أن جاءت ضربة الحرب الأولى فكشفت البطن وضربت نصف قوتها ثم انتهى النصف الباقي في الحرب العالمية الثانية وتم السقوط. يقول جمال حمدان : الآن تصارع الولايات المتحدة من أجل البقاء على القمة ولكن الانحدار تحت أقدامها سار وصارم والانكشاف العام تم الانزلاق النهائي قريب جدًا في انتظار أيّ ضربة من المنافسين الجدد (أوروبا ألمانيا، اليابان).

فديمقراطية أميركا المزعومة التي تتباهى بها على العالم حتى على أوروبا وتعتبرها مثالية وتجسد المثالية الأميركية المدعاة، فعلاً كانت سابقة لعصرها في وقتها، ولكنها الآن متخلفة تمامًا عن عصرها تنتمي إلى القرن ١٨ وتحتاج إلى نسف لا أقل، على حد تعبير جمال حمدان.

ويبدو أن دور روسيا الذي اختارته لنفسها بعد انتحار الاتحاد السوفيتي وللمشاركة الشكلية مع أميركا في النظام الجديد (تعلقًا بحبال الهواء) هو أن تعمل "كوكيل لأميركا".

ويبدو كذلك أن النظام العالمي الجديد، وعالم أميركا، يعتمد على اعتماد مجموعة من الوكلاء الإقليميين الكبار في كل منطقة رئيسية من العالم. وكلاء، وأميركا تشرع لنفسها فقط علنًا وقانونيًا ممارسة الإرهاب الدولي العالمي؛ حيث قررت محكمتها العليا حق أميركا في اختطاف ومحاكمة أيّ أجنبي تطلبه، هذا بالضبط يعني أن أميركا بدأت تعامل العالم الخارجي كما تعاملت مع الهنود الحمر في الداخل: الإبادة والإرهاب الرسمي الشرعي.

لقد بدأت الحرب الباردة بالفعل بين شاطئ الأطلسي، بين أوروبا وأميركا، حلفاء الأطلنطي. انتقلت الحرب الباردة من الشرق. الغرب أو الشيوعية الرأسمالية إلى داخل الغرب نفسه، الغرب. الغرب، وداخل الرأسمالية والرأسماليين القدامى خاصة فرنسا (+ ألمانيا) وأميركا (+ بريطانيا).

يقول البعض إن أميركا هي "سرطان العالم الإسلامي"، بينما لا تنطبق صفة السرطانية على شيء في الدنيا كما تنطبق على أميركا. وكل خصائص ومشخصات وأعراض السرطان تنطبق عليها كما لا تنطبق على شيء آخر سوى الجسم الإنساني: إفراط النمو، التضخم المرضي القاتل الذي يهدد سائر الجسم "العالم" في صميم وجوده.

أما طريقة الحياة الأميركية كما يسمونها ما هي؟ هي هستيريا حياتية متواصلة، سُعار مستمر مركّز ومصدر ومحرك وموجّه هذه الهستيريا الوطنية هو الإعلام: الإعلام الأميركي هو قمة طريقة الحياة الأميركية المزعومة؛ إنه الجنون والهستيريا المسموعة والمقررة والمرئية.. إلخ والشعب الأميركي قطيع قائده الإعلام، وهو حاكم أميركا الحقيقي حتى الإدارة والحكم ينقادان لموجات الإعلام العاتية ويخضعان لإشعاعاتها الضارة إن عفوًا أو عمدًا.

أعمال حمدان تتميز بالعمق الفكري والقدرة على استشراف المستقبل، وليس هذا من قبل التنجيم أو ما شابه، ولكنه يعتمد في الأساس على المنهج التحليلي فكان يدرس الظاهرة بحيادية شديدة، فيأخذ مقوماتها وعواملها التاريخية ويحلل عصرها ثم يقوم بوضع الاستنتاجات العلمية لها

ولما كانت إسرائيل هي التي تحكم الإعلام الأميركي الذي يحكم العقل الأميركي فإن إسرائيل هي الحاكم النهائي والأخير والحقيقي للدولة الأميركية.

ولولا خطر الهيمنة والتسلط والاستعلاء الأميركي لما توحدت أوروبا سياسيًا، إنها رد فعل أكثر منها منطقًا طبيعيًا، إنها سياسة أكثر منها جغرافيا وإن فرضت نفسها في النهاية كجغرافيا سياسية، ولذا فإنها كمعظم حقائق وواقع الجغرافيا السياسية اصطناعية أكثر منها طبيعية أي (غير جغرافية) ولكن على الجغرافيا أن تتعامل معها وإن لم يكن عليها أن تعترف بها.

فمنذ نشأتها وأميركا تدعي المثالية السياسية في كل مجال، والعكس بحديثهم وحواديتهم عن حقوق الإنسان والاستعمار و.. و.. إلخ والعكس تمامًا تمامًا هو ما يفعلون ولكن ما من قوة على الأرض يمكن أن تقنعهم بذلك.

وقد أصبح من الواضح اليوم، أن العالم كله وأميركا، يتبادلان الحقد والكراهية علنًا، أميركا تلعن العالم الوقح الحاقد عليها، والعالم الذي لا يخفي كرهه لها ينتظر بفارغ الصبر لحظة الشماتة فيها حين تسقط وتتدحرج وساعتئذ ستتصرف أميركا ضد العالم كالوحش الجريح.

صار بين أميركا والعالم "تار بايت"، كما يقول جمال حمدان، وأميركا الآن في حالة "سعار قوة" سعار سياسي مجنون، شبه جنون القوة وجنون العظمة وقد تسجل مزيدًا من الانتصارات (العدوانيات) العسكرية في مناطق مختلفة من العالم عبر السنوات القادمة ولكن هذا السعار سيكون مقتلها في النهاية.

الغذاء الداخلي الجديد للولايات المتحدة لم يعد الكاريبي ولا أميركا اللاتينية، وإنما الوطن العربي، والعرب أصبحوا لعبة أميركا المفضلة ومستعمرتهم الخصوصية جدًا، وحدهم يمارسون قيادتهم المزعومة للعالم.

كيان أميركا ذاته وكله فيه المادة الخام النموذجية للثورة الشيوعية كما حددها ماركس – وهي أرقى الدول الرأسمالية تطورًا وتقدمًا إذن هي المرشح الحقيقي للشيوعية الناضجة القادمة، فشل الاتحاد السوفيتي سببه أن الشيوعية فيه قامت في المكان الخطأ والزمان الخطأ – شبه إقطاعي رأسمالي بدائي فلننتظر.

يبدو أن ما كان يقال عن ألمانيا واليابان استراتيجيًا سيقال عن أميركا قريبًا، ولكن بالمقلوب، فألمانيا واليابان عملاقان اقتصاديان وقزمان سياسيان كما قبل، بينما تتحول أميركا تدريجيًا إلى عملاق سياسي وقزم اقتصادي متسارع التضاؤل.

عن: جريدة العرب

جمال حمدان: فيلسوف عبقرية المكان

منى شكري

نبوغ مبكر

ولد جمال محمود صالح حمدان في قرية تاي بمحافظة القليوبية عام ١٩٢٨، اهتم والده مدرس اللغة العربية، بتحفيظ أبنائه السبعة القرآن الكريم وتجويده، كان منذ صغره مولعاً بالكتب ويتنافس في شرائها مع شقيقه محمد، منذ أن كان بمدرسة شبرا الابتدائية، بدأ نبوغه مبكراً، فكان ترتيبه السادس على الجمهورية في الابتدائية، وإثر ذلك حصل على منحة تعليم بالمجان، رغم عدم وجود المجانية آنذاك.

تابع المرحلة الثانوية بالمدرسة التوفيقية عام ١٩٤٣، وكان خلالها لاعباً متميزاً في كرة القدم، وكان يمكن أن يصل به الأمر حد الاحتراف، وعقب نيله للشهادة الثانوية التحق بكلية الآداب قسم الجغرافيا بجامعة فؤاد الأول "القاهرة"، تخرج منها عام ١٩٤٧ ، وكان من أساتذته الدكتور محمد عوض والدكتور سليمان حزين، تفوقه الدائم دفع الجامعة لإرساله في بعثة إلى جامعة ريدنج البريطانية عام ١٩٤٩، ليحصل منها على الدكتوراه في فلسفة الجغرافيا عام ١٩٥٣ عن رسالته "سكان وسط الدلتا قديماً وحديثاً"، وهو لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره.

اختار حمدان الاعتكاف علمياً حتى آخر حياته في شقته المتواضعة في الدقي التي قضى فيها دون أن يتزوج

عين بعد عودته، مدرساً في جامعة القاهرة بقسم الجغرافيا، ثم أصبح أستاذاً مساعداً، وخلال بضع سنوات لفت إليه الأنظار من خلال كتبه الثلاثة: جغرافيا المدن، والمظاهر الجغرافية لمجموعة مدينة الخرطوم "المدينة المثلثة"، ودراسات عن العالم العربي، حتى أنه منح عنها جائزة الدولة التشجيعية عام ١٩٥٩.

لم يدم ربيعه الجامعي طويلاً، ففي عام ١٩٦٣ قدم استقالته احتجاجاً على الظلم الذي شعر به، عندما منح قسمه "أحد المحظوظين" رتبة الأستاذية دون اعتبار لأية كفاءة علمية؛ ولم تقبل الجامعة استقالته إلا بعد عامين حاولت خلالهما ثنيه عن قراره دون جدوى، يقول في كتابه شخصية مصر "واحد من أخطر عيوب مصر هي أنها تسمح للرجل العادي المتوسط، بل للرجل الصغير بأكثر مما ينبغي، وتفسح له مكاناً أكبر مما يستحق.. فشرط النجاح والبقاء في مصر أن تكون اتباعياً لا ابتداعياً، تابعاً لا رائداً، محافظاً لا ثورياً، تقليدياً لا مخالفاً، وموالياً لا معارضاً.. وهكذا بينما تتكاثر الأقزام على رأسها ويقفزون على كتفها، تتعثر أقدامها في العمالقة وقد تطوّهم وطئاً".

في ظلّ هذا الواقع، اختار "أبو الجغرافيا العربية" الاعتكاف علمياً حتى آخر حياته في شقته المتواضعة في الدقي التي قضى فيها دون أن يتزوج، ليتفرغ للتأليف العلمي، فقدم ٧٩ بحثاً ومقالة و٢٩ مؤلفاً بأسلوبه الأدبي الرفيع منها: "المدينة العربية" ١٩٦٤، "الاستعمار والتحرير في العالم العربي" ١٩٦٤، "اليهود أنثروبولوجيا" ١٩٦٧، وفيه يثبت جمال حمدان أن يهود إسرائيل ليسوا أحفاد اليهود الذين خرجوا من فلسطين، بل هم في معظمهم ينتمون إلى أقوام الخزر الذين اعتنقوا اليهودية في القرن الثامن الميلادي، سابقاً بذلك "أرثر بونيسلر" صاحب كتاب "القبيلة الثالثة عشر" الذي صدر عام ١٩٧٦.

أما أهم مؤلفاته؛ بل الأهم عربياً في مجاله، فهو ملحمته العلمية "شخصية مصر" الذي سعى فيه إلى تجنيب مراهقة شاعر القبيلة في المغالاة والتطرف في مديح بلده، وقد استغرقه العمل به قرابة عشر سنوات؛ إذ أنجزه بصيغته الأولى عام ١٩٦٧، ثم استقالته إلا بعد عامين في الفترة ما بين ١٩٨١- ١٩٨٤. وسعى فيه إلى أن ينفذ إلى "روح المكان"، ليستشف "عبقريته الذاتية" التي تحدد شخصيته الإقليمية الكامنة التي لا تقف عند وصف المكان، بل تتعداه إلى فلسفته.

وكان يحرص فيه على ألا يفهم طرحه تدعيماً للعودة الانفصالية أو دعوة للشوفينية، فمصر، كما يقول، فرعونية بالجد عربية بالأب، وإن شخصيتها مهما تبلورت أو تجوهرت، ليست إلا جزءاً من شخصية الوطن العربي الكبير، وإنما خصها حمدان بالدراسة؛ لأنه ببساطة جغرافي عربي من مصر "ليس مما يضير قضية الوحدة العربية... أن يكون لكل قطر من أقطارها شخصيته الطبيعية المتبلورة بدرجة أو بأخرى داخل الإطار العام المشترك. هذا التنوع والتباين في البيئات، إنما يثري الشخصية العربية العامة.. من الزاوية السياسية والقومية، فإن "الإقليم" الوحيد بالمعنى الصحيح في العالم العربي، إنما هو العالم العربي نفسه"، لكنه حذر من المبالغة المتشنجة في تسويد القومية وتغليبها على الوطنية خشية رد الفعل المضاد ما يخلق، كما يرى، نوعاً من الازدواجية والتضاد بين القومية والوطنية اللذين يؤكد كل منهما الآخر. وأثبت في كتابه غير عابئ بالتيارات السائدة أن معظم سكان مصر اليوم من القبط مسلمين ومسيحيين، بينما الأجناس الوافدة على مر التاريخ لم تؤثر في الجنس المصري إلا بالنزر اليسير.

كانت سعادته في البحث العلمي لا يعدل بها أي شيء من متاع الدنيا، مؤثراً ثلاثين عاماً من العزلة، وكان لهزيمة حزيران عام ١٩٦٧ أبلغ الأثر في طريقة تفكيره، حتى غدا بكامل إرادته زاهداً في كثير من الفرص والإغراءات المادية معتمداً على دخل بسيط من عائد حسابه البنكي؛ إذ قدم له محمد حسنين هيكل عرضاً مغرياً للكتابة في جريدة "الأهرام" فرفضه، كما رفض أكثر من منصب في غير بلد عربي. وكان مضرب المثل في الأنفة والكبرياء، حتى أنه خاصم أحمد بهاء الدين، عندما أثار قضية عدم صرف راتب التقاعد له لأسباب بيروقراطية تتعلق بمدة خدمته الجامعية.

وعلى الرغم من كل مشاغله العلمية، كان بحسبه المرهف يجد وقتاً لممارسة هواياته في الخط والرسم وكتابة الشعر، وكان إلى ذلك متذوقاً للموسيقى والغناء من الطراز الأول.

رؤية استشرافية

كان جمال حمدان ذا رؤية استشرافية بامتياز، فهو أول من أشار إلى تأثير البترول سياسياً وإستراتيجياً في كتابه "بترول العرب" ١٩٦٤، كما تنبأ في كتابه "إستراتيجية الاستعمار والتحرير" عام ١٩٦٨ بانهيار الاتحاد السوفيتي.

حصل حمدان على جائزة الدولة التقديرية في العلوم الاجتماعية عام ١٩٨٦ لكنه رفض تسلمها، كما نال وسام الجمهورية من الطبقة الأولى عن كتابه "شخصية مصر" عام ١٩٨٨، أما جائزة التقدم العلمي من الكويت عام ١٩٩٢ وكانت قيمتها ١٢٥٠٠ دينار كويتي، فقد وزعها على معارفه.

رحل إثر حريق بشقته في ظروف غامضة عام ١٩٩٣ واكتشف المقربون اختفاء مسودات كتب كان يصدد الانتهاء من تأليفها، أحدها عن اليهودية والصهيونية، ويقع في ألف صفحة، وكتاب العالم الإسلامي المعاصر، وهو توسع لكتاب أصدره عام ١٩٦٥، أما الثالث، فكان عن علم الجغرافيا.

لقد زادت مثل آراء جمال حمدان السياسية من عزلة "فيلسوف عبقرية المكان"، وهذا قد يفسر أنّ واحداً من أهم العقول العربية في العصر الحديث، لم تجد جنازته وهي تعبر شوارع القاهرة التي طالما عشقها أكثر من ثلاثين شخصاً ليشيعها، وكأنها في وحدتها ماتزال تردد كلمات عتابه "إن ما تحتاجه مصر أساساً، إنما هو ثورة نفسية، بمعنى ثورة على نفسها أولاً، وعلى نفسيتها ثانياً؛ أي تغيير جذري في العقلية والمثل وأيديولوجية الحياة قبل أي تغيير حقيقي في حياتها وكيانها ومصيرها... ثورة في الشخصية المصرية وعلى الشخصية المصرية".

عن: المصري اليوم

http://www.almadapaper.net - E-mail: almada@almadapaper.net

على الرغم من الاختلاف البيّن منهجاً وموضوعاً بين عمل الدكتور علي الوردي الفكري في كتبه كافة وعمل الدكتور جمال حمدان في كتابه العمدة "شخصية مصر: دراسة في عبقرية المكان"، فموضوع الأول هو الشخصية العراقية، لا شخصية العراق، والثاني موضوعه شخصية مصر، لا الشخصية المصرية، الأول اجتماعي يتخذ من التاريخ والظواهر الاجتماعية، وحتى الحكايات الشعبية، الراسية أم العابرة، مادته، والثاني جغرافي، ولكن جغرافيته "لا تقف عند حدود وصف المكان بل تتعداه إلى فلسفة المكان"(١) (ج١، ١٢)، على الرغم من ذلك فإن الرجلين يلتقيان، حياتياً وفكرياً، في أشياء أساسية كثيرة، وهذه هي موضوع هذا المقال. يتوقف قطار جمال حمدان في رحلته الطويلة لفترة ليست قليلة في محطة علي الوردي. ويشتركان في مسارات، وتجمعهما هموم.

حوارٌ بين علي الوردي وجمال حمدان

علي حاكم صالح

والهمّ الوطني المتأسس علمياً لا آيديولوجياً صاخباً يأتي في مقدمة ما يشغل اهتمامهما المعرفي والفكري: إنهما يجليان، كل على طريقته الخاصة، خصوصية وطنيهما ضمن حيّز أوسع يشملهما معاً، أعني امتدادهما العربي والإنساني. وربما بسبب ذلك، فضلاً عمّا اتصفا به من التزام علمي أخلاقي، تشابه الرجلان من جهة ما لقياه من إهمال متعمد من طرف المؤسسة الثقافية السياسية الرسمية. لأنهما لم ينسجما مع هذه المؤسسة أو ينافقاها فيما تريد، وتفكر، وتخطط (هذا إن كانت تفكر وتخطط فعلاً).

يشدني "شيطان المقارنة" (حسب عبارة كيليطو) إلى مواجهة الرجلين وجهاً لوجه في المحطة التي التقيا فيها، وعقد حوار أديره أنا ولكن محتفظاً لهما بصوتيهما. هو حوار بين اثنين لا يخلو أحياناً قليلة من مداخلاتي.

العراق، كما يقول الدكتور حمدان، أقرب الدول العربية "شبهاً بمصر حتى ليعدا بمثابة نظائر جغرافية" (ج٤، ص ٦٤٢)، كما أنهما أول بلدين شهدا مولد الحضارة كما يقول الوردي، وكما يعرف الجميع.

مات علي الوردي (١٩١٣-١٩٩٥)، أكبر عالم اجتماع في العراق، ولم يسر خلف جنازته "عدا القلة"، "فلم يكن للخصوم أن ينحنوا تحية واحتراماً لمفكر كبير في بلاد غابت عنها تقاليد الحوار، وبات من النادر احترام الرأي الآخر، وتحولت فيها الخلافات الفكرية إلى حافات سكاكين تقسم الناس، حتى النخبة منهم، فلم يعودوا قادرين على الإفصاح عن احترامهم لمفكرين لم يتفقوا مع أفكارهم ودعواتهم. أما محبوا الوردي وتلامذته، فعدا القلة ممن شارك في وداعه، فلاشك أن الخوف من الإفصاح عن تابعيتهم الفكرية والعاطفية له قد شلت أقدامهم عن الخروج إلى الشارع في تظاهرة الوداع التي لن تعيد نفسها مرة أخرى"(٢). ومات جمال حمدان (١٩٢٨-١٩٩٣)، في عزلته الطوعية، متفرغا لبحثه العلمي، وعن موته كما يقول د. خالد منتصر، اكتفت إحدى الجرائد بهذا العنوان البائس: """انفجار أنبوبة بوتاجاز في دكتور جغرافيا".

ليس أمراً جديداً، والغريب أنه لم يعد غريباً، أن يُنبذ المبدعون الحقيقيون، مادام مناخ الحياة الثقافية والفكرية هو مناخ الرعاة والمرعيين، والحظوة في بلاط الأمير ومؤسساته، لا تكون إلاّ لمن ينافقها، ويدغدغ مشاعر العوام. وكلا الرجلين لم يفعل هذا ولا ذاك، إنما تركا كتابات ستظل حية، ويموت الجميع.

لم تكن رحلتي مع "شخصية مصر"، في بعض مفاصلها، يسيرة، ولكنها بالتأكيد مفيدة وشيّقة؛ لأن جمال حمدان يتجول ويجول بين جميع العلوم، فيتحدث عن صخور مصر بنفس الحميمية (العلمية والشخصية سواء بسواء) التي يتحدث فيها عن النيل، عن تاريخ مصر القديم والحديث، عن الفلاح المصري، عن اقتصاد مصر، وزراعتها، عن صحراواتها، ونيلها، عن آلامها وآمالها، عن أمس مصر، وما قبله، وعن يومها، والقابل من الأيام. ولكنه كنظيره العراقي يتريث قليلاً، ولا يفصح كثيراً في حديثه عن اليوم، يومه.

كتب علي الوردي مرة: "لي كتب قد أعددتها للطبع منذ سنوات. وقد أعلنت عنها ذات مرة إعلاناً ساخراً فقلت: إنها ستصدر بعد موت المؤلف إن شاء الله. وكان سبب هذا الإعلان الساخر أني كنت لا أتوقع أن تحدث الثورة [ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨] عندنا في وقت قريب. والآن وقد حدثت الثورة بأسرع مما كنت اتوقع، فهل تراني قادرا على إخراج تلك الكتب العتيدة؟ كلا!"(٣). وهي لم تصدر حتى الآن، بل إن الحال قاد الوردي حدّ أن كتب "كلمة وداع" في نهاية كتابه الأحلام بين العلم والعقيدة، يقول فيها: "لابد لي من كلمة وداع أودع بها القارئ في خاتمة كتابي هذا الذي هو فيما أعتقد آخر كتاب أخرجه إلى الناس. ويخيّل لي أن الكثيرين من القراء سوف لا يأسفون لهذا الوداع، ولعل البعض منهم سيفرح به"(٤).

وعلى النحو نفسه بالضبط فعل جمال حمدان. فقبل أن ينهي سفره العظيم بالباب الحادي عشر، المعنون "مصر والعرب"، كتب تحت عنوان "توضيح لابد منه للقارئ"، يقول فيه: "إلى أن يزول وجه مصر القبيح نهائيا، وكذلك وجه العرب الكالح القمئ المتنطع أيضاً، فإن من الواضح تماماً في الوقت الحالي الردئ الساقط استحالة كتابة هذا الباب كما ينبغي وكما كان في خطة هذا العمل الكبير. ليس ذلك. ليثق القارئ. حرصاً على سلامتنا أو حتى حياتنا، ولكن فقط حرصاً على سلامة وصول هذا الكتاب إليه. وكل لبيب بالإشارة يفهم... ورغم أن المادة الأولية والأفكار الأساسية والتخطيط العريض لهذه الفصول تم إعدادها بالفعل منذ أمد ليس بالقصير، إلا أن المؤلف بكل الأسف والأسى يستأذن في أن يقدم اعتذاره لقارئه عن عدم استحالة الكتابة والنشر في ظل الظروف الراهنة القهرية القاهرة التي يعرف، إذ لن يصل إليه حرف منها بحال من الأحوال". (ج٤، ٦٣٠).

لم يكتب الوردي كلمة الوداع اعتباطاً، فلقد جاءت متوافقة مع تغير "ذوق القارئ العراقي"، حسب تعبيره. يكتب: "ولابد لي من أن أعترف هنا فأقول بأنه كتاب إن كان يصلح لعهد مضى، فهو لا يصلح للعهد الثوري الجديد، أقول هذا من باب الاعتراف بالواقع وإن كان مرّا. وهو اعتراف لابد من أن أبوح به لكي يكون القارئ على بصيرة من أمره حين يقرأ هذا الكتاب أو أي كتاب آخر من كتبي السابقة. هناك حقيقة لا يجوز لي أن أتناساها هي أن ذوق القارئ العراقي قد تغير تغيراً كبيراً إثر قيام الثورة. فبعدما كان القارئ يتلذذ ما أكتب ويكتب أمثالي من مواضيع اجتماعية ونفسية لا تمس السياسة إلاّ مسا خفيفاً، أصبح اليوم يريد من الكاتب أن يكتب في صميم السياسة وأن يعلن رأيه جهراً فيما هو حق أو باطل من المبادئ التي يتنازع حولها الناس... فالذي لا شك فيه أن ثورة ١٤ تموز كانت ثورة جذرية كبرى هزت عقول الناس وقلبت مفاهيمهم. وأعتقد أن عهد الثورة يحتاج إلى كتاب وأدباء من نوع جديد يختلف عن ذلك النوع من الأدباء والكتاب الذين اعتاد الناس عليهم في عهد مضى"(٥).

الوردي يودع القارئ لأن ذوق هذا القارئ نفسه قد تغير، وتغيُّر الذوق عندنا يعني إصدار أحكام وتنفيذها على وجه السرعة. والأحكام في بلادنا حاسمة ونهائية. بل إن الوردي يسارع، في موضع آخر، إلى إزالة أي سوء فهم، أو لبس، قد يترتب عليه أذى وضرر عظيمان، يكتب: "أرجو أن لا يفهم القارئ من هذا أني أقصد بهذا شباب حزب معين من أحزابنا المتصارعة في هذه الأيام. فالذي ذكرته يصدق على كثير من الشبان المتحمسين من كل حزب وفي كل بلد، لاسيما في هذا البلد الأمين!"(٦)، وتبدو ضرورة هذا التوضيح جلية في خشيته من أن يحسب على طرف ما، أو جهة ما، فيناله القسط المستحق الذي يناله كل إنسان يرى خلاف ما يراه السائدون في هذا البلد الأمين حقاً! يكتب أيضاً: "لو أتيح لأي حزب أن ينتصر في فترة من فترات الزمن لفعل شبانه مثلما فعل شبان حزب آخر... وها أنذا الآن أسمع عن سلسلة من الاعتداءات الصارخة يقوم بها عصابات من الشبان في بعض مناطق بغداد، إذ هم يركبون الدراجات يبحثون بها عن صيد لهم في زوايا الشوارع لكي يشبعوه ضرباً وتنكيلا. ولو أتيحت لهؤلاء فرصة كافية لما ترددوا عن القيام بأبشع الأعمال والفظائع"(٧).

أما جمال حمدان، فإنه يعتذر للقارئ، لا خوفاً منه، إنما خوفاً من السلطة. ولكن خوف علي الوردي هو أيضا خوف من السلطة. بطبيعة الحال لم تكن السلطة يوماً راضية عن علي الوردي، ولا هو كان منسجماً معها، ولكنها اتخذت بعد العام ١٩٥٨ شكلاً آخر. ففي العهد الملكي لم تكن السلطة تعتمد على غير مؤسساتها البوليسية والحقوقية والسياسية في تدبير وتسيير دفة الحكم وفرض سلطاتها، ولكنها لم تحتكم يوماً إلى أتباع، أو أنصار، وغوغاء. فهذه الظاهرة الأخيرة لم تنمو وتتضخم إلاّ في العهد الجمهوري. ويبدو أن نظام الحكم في بلداننا الذي يسمى جمهورياً، لا علاقة له بهذا المفهوم السياسي إلاّ من جهة تأليب جمهور من العوام لفرض سلطة سياسية، ومن ثم حشده، واستغلاله لمآربها ضد جمهور آخر. فالأحزاب التي تسمّي نفسها جماهيرية، أو شعبية، إنما كانت تجيّش هذه الجموع، وتستغلها في أوقات الصراعات، والمنازعات التي يكون الميدان العام ساحتها. يكتب علي الوردي: "لم تنصب المقاصل في ثورتنا كما نصبت في الثورة الفرنسية، إنما استخدمت فيها الحبال والخناجر والهراوات والقناني. ولو استمرت فترة الحماس في ثورتنا مدة أطول لربما شهدنا فيها أشياء أخرى لا يعلمها إلاّ الله."(٨).

وخلف الاختلاف الظاهري بين تصريح الرجلين، فعلي الوردي يخشى الجمهور لأن الجمهور يريد كتابة تمس السياسة، حسب تعبيره، في حين يخشى حمدان السلطة السياسية، لأنها لا تريد لأحد أن يخوض في شؤونها، أقول خلف هذا الاختلاف الظاهر وحدة عميقة. كان علي الوردي قد أعلن عن وداعه ذاك في بدايات ثورة ١٤ تموز في العام ١٩٥٨، حيث كان الشارع صاخبا، تتوزعه انتماءات آيديولوجية مختلفة وقاتلة، لذلك صار مطلوباً من الكاتب الذي يتصدى للشأن الاجتماعي أن يتحدث في الشأن السياسي، بمعنى أن يفصح عن انتماءاته الآيديولوجية. لأن الخوض في الشأن السياسي، في أيام التحولات الفائرة، لابد، كما يريد الجمهور، أن يأخذ صيغة موقف آيديولوجي ما؛ "وأن يعلن رأيه جهراً فيما هو حق أو باطل" حسب تعبير الوردي نفسه. في حين أن جمال حمدان كتب توضيحه بعد سنوات طويلة على استتباب الوضع السياسي لمصلحة سلطة سياسية واحدة وحيدة، حرفت توجهاتها الأصلية نحو اتجاه معاكس تماماً، ففقدت جمهورها الذي يفترضه حمدان، ويوجه إليه كتابه. في حالة الوردي كان الحديث في السياسة يعني، إذّاك، الحديث المتحزب، أما في حالة حمدان فكان الحديث في السياسة يعني نقد نظام السلطة السياسية القائمة فعلياً، ونقد توجهاتها التي تشيع في نفسه الألم والمرارة.

كان علي الوردي يصف في كتابه "وعاظ السلاطين"، الصادر في فترة الحكم الملكي، القيّمين على دار الإذاعة العراقية بـ"جلاوزة الإذاعة"، ويضيف هامشاً إلى عبارته هذه يكتب فيه: "حقّ على المذيع آنذاك أن ينادي: هنا بلد الجلاوزة. هنا بغداد"(٩). وما كان له أبداً أن يجرؤ على هذا القول في كل الفترة التي تلت العام ١٩٥٨. بل ما كان ليجرؤ حتى على أن يقول ما قاله الدكتور جمال حمدان في تبرير عدم نشره الباب الأخير من كتابه حينما يوجه كلامه مباشرة إلى القارئ.

ولكن الجمهور الذي يخشاه علي الوردي لا يعبر دائما عن توجهات السلطة السياسية القائمة، إنما يعبر عن سلطته الخاصة، فتحت فقرة بعنوان "أنا والغوغاء"، يكتب الوردي: "لقد خبرتُ خطر الغوغاء وأدركت مبلغ دناءتهم عندما أخرجت كتاب وعاظ السلاطين عام ١٩٥٤. كنت أبتغي... تنقية الدين مما لحق به من أدران سلطانية آثمة... فهاج الغوغاء على كاتب هذه السطور هياجاً عجيباً، وهددوه بالقتل غير مرة وثلبوه ثلباً قبيحاً. ولم يتردد بعضهم عن رؤيته في أحلامهم يساق إلى نار جهنم مصحوباً بلعنة الله وملائكته أجمعين... ومن العجيب حقاً أن أرى أفراداً من أولئك الغوغاء الذين كانوا يرومون قتلي في ذلك الحين سائرين الآن في الاتجاه المعاكس، إذ هم يرومون قتل خصومي، ولست أدري ماذا سوف يفعلون في الأيام المقبلة؟ أرجح الظن أنهم سيحاولون عندئذ قتلي وقتل خصومي في آن واحد"(١٠).

الفارق بين الرجلين هو، كما لا يخفى، الفارق بين مجتمعيهما، ونوعي السلطة الجمهورية التي سادت على رقاب الناس. ليس هذا تجميلاً للسلطة الملكية أبداً، ولكنه بكل تأكيد تمييز لها. وردود الأفعال التي استشعرها الرجلان، أو واجهاها فعلاً، من كتابتهما، هي نفسها. يقول جمال حمدان: "لا يمكن لكاتب أو عالم أو مفكر أن يوجه إلى مصر نقداً موضوعياً بنّاءً صادقاً ومخلصاً إلاّ وعدّ على التو والفور والغرابة والدهشة: عدواً بغيضاً أو حاقداً موتوراً إن كان أجنبياً، وخائناً أعظم أو أحقر إن كان مصرياً" (ج١، ص ٢٨). أما الوردي فيقول: "والغريب أن الكثيرين منهم كانوا يقرؤون كتبي ويشتمونها في آن واحد. ويصح أن يقال عن كتبي من هذه الناحية كما قيل عن لحم السمك: مأكول مذموم"(١١).

ومع ذلك، فإنهما لا يختاران غير الخوض في موضوعيهما إلى نهاية الطريق، بالحد الواقعي المتاح، إنها قضية تتعدى كونها رغبة فكرية بحتة، إنما هي همّ وطني بالمعنى الدقيق للكلمة. يقول الدكتور حمدان "إننا قط لم نكن أحوج مما نحن الآن إلى فهم كامل معمق موثق لوجهنا ووجهتنا، لكياننا ومكاننا، لإمكانياتنا وملكاتنا، ولكن أيضاً لنقائصنا ونقائضنا. كل أولئك بلا تحرج ولا تحيز أو هروب... نقول في هذا الوقت تجد مصر نفسها بحاجة أكثر من أي وقت مضى إلى إعادة النظر والتفكير في كيانها ووجودها ومصيرها بأسره... وبالعلم وحده، لا الإعلام الأعمى ولا الدعاية الدعية ولا التوجيه القسري المنحرف المغرض، يكون الرد" (ج١، ٢١٩-٢٠)، أما الوردي فيقول "أرجو أن يعلم القارئ إني حين أذكر مساوئ القيم التي كانت سائدة في مجتمعنا في العهد العثماني، والتي مازالت بقاياها موجودة فيه حتى الآن، لا يعني ذلك أني أقصد ذمّ هذا المجتمع. فالواقع أن كل مجتمع في هذه الدنيا لا يخلو من عيوب ومساوئ خاصة به. ومن واجب الباحث الاجتماعي أن يبحث في تلك المساوئ من أجل معالجتها أو محاولة إصلاحها"(١٢).

ومن الكتب التي أعدها علي الوردي للطبع، ولكنها لم تُنشر، هو كتاب "أخلاق أهل العراق". وفي هذا الكتاب يقول علي الوردي كشف عن "عيوب المجتمع العراقي وما فيه من قيم سيئة وتطرف قد لا تحمد عواقبه أحياناً. وكل من يدرس الأوضاع السياسية والاجتماعية التي مر بها الشعب العراقي في عهوده البائدة لابد أن يستنتج منها مثلما استنتجته. ولكني مع ذلك واثق بأني لو أخرجت هذا الكتاب لقابله كثير من القراء بالنفور. ولا لوم على القراء في هذا، فهم يطلبون من الكاتب في هذه المرحلة الثورية أن يكتب للشعب فيما يشجعه ويمجّد أفعاله، لا أن يثبطه ويحصي عليه عيوبه"(١٣).

ويقول حمدان واصفاً ما يصدر، أو ما يمكن أن يصدر، من مواقف تجاه كتابته: إنه "موقف خطر للغاية، يصل إلى حد الإرهاب الفكري والمصادرة على المطلوب مسبقاً. وهو ببساطة مفجعة أكبر ضمان بالتدهور والانحدار الوطني والتجمد والتخثر والتعثر القومي، لأننا بمنطقة مطلوب منا ببساطة أن نصور مصر والمصريين كيوتوبيا على الأرض، كفردوس أرضي. فالخطر كل الخطر في وجه هذا الموقف أن قد يُصبح خط المقاومة الدنيا هو الطريق السهل، خط الديماجوجية والنفاق الوطني وتملق ودغدغة غرائز الشعب وإرضاء غروره بتزيين عيوبه وتضخيم محاسنه" (ج١، ٢٨).

ويلتقي الرجلان أيضاً في تشخيص أحد جوانب هذه المواقف المتعصبة العمياء. يقول حمدان واصفاً شكل الكاتب الذي تريده هذه المواقف: "حينئذ يمسي الكاتب، كشاعر القبيلة في الجاهلية، صناجة الوطن وبوق الشعب كيفما كانت حقيقتهما ومهما كانت هذه حقاً أو باطلاً. وبذلك يفقد الكاتب تواً وظيفته الاجتماعية ومبرر وجوده الوطني" (ج١، ٢٨). فكتابه "شخصية مصر": "ليس دفاعاً بالحق والباطل عن مصر، ولا هو هجوم عليها أيضاً. وإنما هو تشريح علمي موضوعي يقرن المحاسن بالأضداد على حد سواء، ويشخص نقاط القوة والضعف سواء بسواء. وبغير هذا لا يكون النقد الذاتي، بل ولا يكون العلم" (ج١، ٣١). أما الوردي فيقول: "يؤسفني أن أقول إن العقلية الشعرية المسيطرة على أذهان متعلمينا قد أضرت بنا كثيرا. فمن طبيعة العقلية الشعرية إنها تقف موقفاً جدياً تجاه المجتمعات أو الأفراد. فالمجتمع أو الفرد في نظر تلك العقلية أما أن يكون حسناً كله أو قبيحاً كله... ولا حاجة بنا إلى القول إن هذا المنهج الشعري لا يلائم المنهج العلمي الحديث. فالعلم الحديث لم يتقدم هذا التقدم العظيم الذي نراه إلاّ بعد ما تخلص من التحيز العاطفي وأخذ ينظر إلى الأمور نظرة موضوعية حيادية"(١٤).

ما الذي أراد جمال حمدان كتابته ولم يكتبه، فاعتذر لقارئه؟ وما الذي كان علي الوردي يريد قوله، فحبسه في صدره، وأخذه معه إلى القبر؟

في كتابه دراسة في طبيعة المجتمع العراقي، الصادر في العام ١٩٦٥، وتثبيت التاريخ مهم هنا، تحدث الوردي عن مسألة الديمقراطية. ويطرح سؤالا بالغ الدلالة والأهمية أمس واليوم مفاده: "هل نترك الشعب العراقي يتورط في التجارب القاسية مرة بعد أخرى حتى يتعظ بها من تلقاء نفسه، أم ينبغي أن نأخذ بيده ونرشده إلى الطريق الصحيح؟"، ويجيب: "يمكن القول إن الوضع الراهن في العراق يحتاج إلى تخطيط ومعالجة موضوعية بمقدار ما تتحمله ظروفه المحلية. ويخيل لي أن من الوسائل المجدية في ذلك هو أن نحاول تعويد الشعب العراقي على الحياة الديمقراطية ونجعله يمارسها ممارسة فعلية، حيث نتيح له حرية إبداء الرأي والتصويت دون أن نسمح لفئة منه بأن تفرض رأيها بالقوة على الفئات الأخرى. إن هذه فرصة يجب علينا انتهازها، فالعراق الآن يقف على مفترق الطريق، وهذا هو أوان البدء بتحقيق النظام الديمقراطي فيه، فلو فاتت هذه الفرصة من أيدينا لضاعت منا أمداً طويلاً..."

بعد تحديد العلاج، يختم كتابه بالعبارة الآتية: "ينبغي لأهل العراق أن يعتبروا بتجاربهم الماضية، وهذا هو أوان الاعتبار! فهل من يسمع؟!"(١٧) بطبيعة الحال لم يستمع أحد، وكفّ الرجل بعد ذاك عن التطرق لهذا الحديث مع تصاعد مجريات العهد الجمهوري إلى مديات من التعسف غير مسبوقة. وعن صدى كلمات الوردي هذه عبّر الدكتور محمد جابر الأنصاري خير تعبير بقوله: "ولكن صوته (أي علي الوردي نفسه) ما لبث أن ضاع في غمرة الضجيج الإيديولوجي الصاخب حينئذ يساراً ويميناً، بحيث لم يتحول إلى تيار فكري أو مدرسة يشارك فيها آخرون". وعن عبارة الوردي السالفة نسأل: كيف يستجيب عراقي يقرأ كلمات الوردي هذه بعد كتابتها بعشرة أعوام، عشرين عاماً، ثلاثين عاماً، أربعين عاماً؟ بالتأكيد سيدرك، من بين ما يدرك، أن كلمات هذا الرجل البسيطة جداً، ولكن العميقة، والمباشرة جداً، والصريحة جداً، رجل كان مختبره التاريخ، والزقاق الشعبي، والمقهى، وعلاقات الناس اليومية، هي أعمق وأصدق من كلّ ما قيل.

واليوم هناك الكثرة الكاثرة من مثقفي العراق، ممن عاشوا حياتهم بين طيات الكتب (في جميع ألوانها) يبدون استغرابهم مما يسود المجتمع العراقي من ظواهر بربرية، وإلى هؤلاء المثقفين أنفسهم كان علي الوردي قد أهدى كتابه (دراسة في طبيعة المجتمع العراقي): "أقدم كتابي هذا إلى الذين يشغفون بالأفكار العالية فيحاولون تطبيقها في مجتمعهم بغض النظر عن طبيعة المجتمع وظروفه. لقد آن لهم أن ينزلوا عن أبراجهم العاجية وأن يأخذوا بعين الاعتبار مقتضيات الواقع الاجتماعي الذي يعيشون فيه

وشأن نظيره العراقي يرى جمال حمدان أن المشكلة الأهم التي تواجه المجتمع المصري هي الديمقراطية كما يقول حمدان بوضوح شديد، وبصوت يريده أن يكون مسموعاً. لنستمع إلى كلماته المتأسية ولكن الصادقة والحقيقية،: "لقد تغيرت مصر الحديثة والمعاصرة في جميع نواحي الحضارة المادية واللامادية... غير أنها من أسف لم تكد تتغير من ناحية الحكم والسلطة والدولة، التي هي بالتحديد المقياس والمحك الوحيد للتطور الحضاري عموماً والتقدم الإنساني الحقيقي. ففي هذا لا جديد تحت شمس مصر: فمصر سنة ١٩٨٤ ميلادية هي سياسياً كمصر سنة ١٩٨٤ قبل الميلاد، والفرعونية المحدثة لا تختلف جوهرياً عن الفرعونية العتيقة وإذا كانت مصر اليوم دولة متخلفة تكنولوجياً، نصف متخلفة حضارياً، فإنها متخلفة مرتين سياسياً: داخلياً وخارجياً، كمواطن وموطن. وفيما بين الطرفين، تظل الديمقراطية هي مشكلة مصر الأولى والأم. فهي وإن لم تكن مشكلتها الوحيدة أو الأخيرة، فإنها مفتاح جميع مشاكلها الأخرى بلااستثناء. لا شيء يسبقها، ولكنها تسبق الجميع. جميع مشاكل مصر وأزماتها وكوارثها الداخلية والخارجية، في الانتاج والحضارة والتقدم، مع العدو الإسرائيلي والأشقاء العرب، مع القوى العظمى والصغرى، كل انحدار أو سقوط مصر في الحرب أو في السلم، كافة عيوبها ونقائصها وسلبياتها في المجتمع والفرد كما في السياسة والاقتصاد مصدرها وسببها الرئيسي هو الاستبداد الداخلي الغاشم والطغيان الفرعوني المقيم المستديم... إنها هي أصل مشكلة مصر كلها: شخصية مصر، مصير مصر، رخاء مصر، بل وبقاء مصر، شخصية المصري، كرامة المواطن المصري، نفسية الانسان المصري، إعادة بناء الإنسان المصري والشخصية القومية... في كل هذا وغيره فتش عن الديمقراطية أو غيابها، فإنها هي حاكمها ومقرها وضابط إيقاعها مثلما هي حلها جميعاً" (ج٤، ٦١٢).

جمال حمدان..
فيلسوف الجيوبوليتيكا

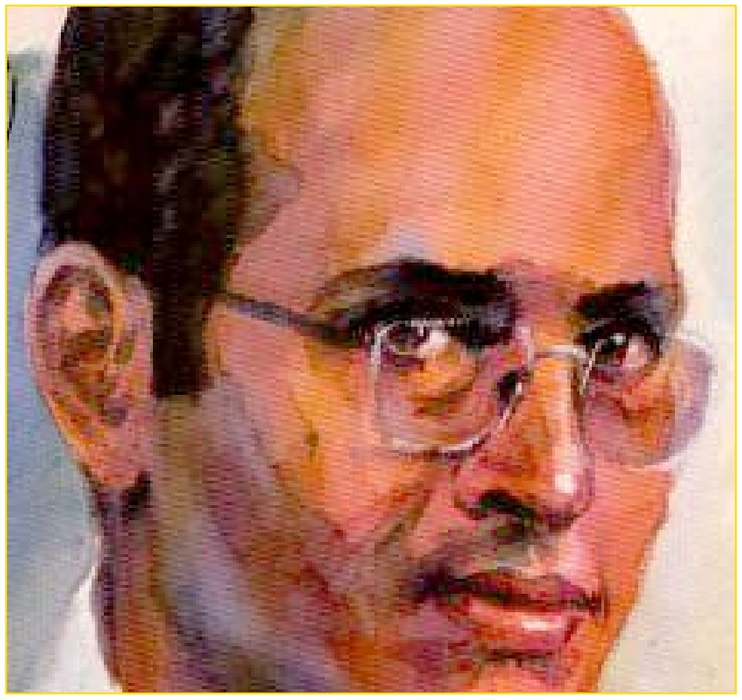

الدكتور جمال حمدان أحد أعلام الجغرافيا المصريين الأفذاذ، والذى حلت ذكرى رحيله السادسة والعشرين قبل أيام، فقد تفرد بلا منافس في علوم الجغرافيا وفلسفات الشعوب، ولطالما ظل اسمه مدونًا في كل المراجع العالمية بلا استثناء، بل ترجمت كتبه العظيمة لمختلف اللغات، واعتبره البعض حالة متميزة جادت بإبداعاتها بكل تفانٍ وإخلاص، ولم لا، فقد كان راهب الجغرافيا والوطن والعروبة بامتياز، جمع بين العلم والفن والفلسفة، كما عُد أحد أعلام الجغرافيا المصريين، ولكنه كما قيل، لم يكن مجرَّد أستاذ للجغرافيا في جامعة القاهرة، بل كان مفكرًا وعالمًا، أفنى عمره كلَّه باحثًا عن ينابيع العبقرية في الشخصية المصرية، محللًا للزمان والمكان والتاريخ الذي أدى إلى حفاظ تلك الشخصية على مقوماتها.

د. محمود محمد علي

فمثلا نجد أنه شكل بمفرده مدرسة راقية في التفكير الاستراتيجي المنظم، مزج فيها بطريقة غير مسبوقة ما بين علم الجغرافيا الذي لا يتعدى مفهومه لدى البعض نطاق الموقع والتضاريس، وعلوم التاريخ والاقتصاد والسياسة، ليخرج لنا مكون جديد أسماه "جغرافيا الحياة". وأوضح "حمدان" في مقدمة كتابه الموسوعي "شخصية مصر" المقصود بتلك الجغرافيا مشيرًا إلى أنها: "علم بمادتها، وفن بمعالجتها، وفلسفة بنظراتها.. وهذه الرؤية ثلاثية الأبعاد في التعاطي مع الظاهرة الجغرافية تنقل عالم الجغرافيا من مرحلة المعرفة إلى مرحلة التفكير، ومن جغرافية الحقائق المرصوصة إلى جغرافية الأفكار الرفيعة.

ولم تكن الجغرافيا هم "جمال حمدان" الوحيد، لكنه أراد أن يجعل منها مركزًا لكل العلوم، فكان لكل واد عنده نظرية، ولكل بحر دلالة وأهمية، ليصيغ من خلال ذلك نظرية استراتيجية كاملة في عبقرية المكان، ويحلل من خلال تلك النظرية التاريخ والحاضر والمستقبل.

وُلد جمال حمدان في العام ٤ فبراير ١٩٢٨م ، وحصل على الشهادة الابتدائية عام ١٩٣٩، وقد اهتم والده بتحفيظه القرآن الكريم، وكذلك تجويده وتلاوته؛ مما كان له أثر بالغ على شخصيته، وعلى امتلاكه نواصي اللغة العربية، وقد ظهر ذلك جليًا في كتاباته التي تميزت بأسلوب أدبي مبدع.

وبعد المرحلة الابتدائية التحق بالمدرسة "التوفيقية الثانوية" وحصل على شهادة الثقافة عام ١٩٤٣، ثم حصل على التوجيهية الثانوية عام ١٩٤٤، وكان ترتيبه السادس على القطر المصري، ثم التحق بكلية الآداب قسم الجغرافيا.تخرج من كليته في عام ١٩٤٨، وتم تعيينه معيدًا بها، ثم أوفدته الجامعة في بعثة إلى بريطانيا سنة ١٩٤٩، حصل خلالها على الدكتوراه في فلسفة الجغرافيا من "جامعة ريدنج" عام ١٩٥٣، وكان موضوع رسالته: "سكان وسط الدلتا قديما وحديثًا".

كان الدكتور جمال حمدان يرى أن مصر تحوَّلت من أول أمّة في التاريخ إلى أول دولة، ثم أول إمبراطورية، وتوصل إلى تلك الحقائق من خلال دراسات جادة وأبحاث متعمقة، درس في كلية الآداب- قسم الجغرافيا، وتخرَّج منها في العام ١٩٤٨ ليُعيَّن معيدًا بها، ثم يسافر إلى بريطانيا في بعثة لدراسة الدكتوراه في العام ١٩٥٣، وكانت أطروحته بعنوان "سكان الدلتا قديمًا وحديثًا".

ولا شك في أن كتاباه "دراسات عن العالم العربي" و"جغرافيا المدن"، كانا أول ما سلط الضوء على عمله المتميز، ليحصل على جائزة الدولة التشجيعية وعمره حينها لم يتجاوز ٣١ سنة.

والناظر بإمعان إلى كتابات حمدان ومنهجه ونظمه الجغرافي؛ يجد أنه كان قد حلق بعلم الجغرافيا إلى آفاق بعيدة، لم يستشعر بها أحد من أقرانه الجغرافيين قبله، فحمدان هو روح الجغرافيا الجديدة المتجددة دائمًا وأبدًا، مع أن كتاباته تميل إلى النسق العلمي المتسق بالأدب. ترك جمال حمدان إرثًا عظيماً نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: (دراسات في العالم العربي، القاهرة، ١٩٥٨) و(أنماط من البيئات، القاهرة، ١٩٥٨) و(دراسة في جغرافيا المدن، القاهرة، ١٩٥٨) و(المدينة العربية، القاهرة، ١٩٦٤) و(بترول العرب، القاهرة، ١٩٦٤) و(الاستعمار والتحرير في العالم العربي، القاهرة، ١٩٦٤) و(اليهود أنثروبولوجيا، كتاب الهلال، ١٩٦٧) و(شخصية مصر، كتاب الهلال، ١٩٦٧) و(استراتيجية الاستعمار والتحرير، القاهرة، ١٩٦٨) و (مقدمة كتاب (القاهرة) لديزموند ستيوارت، ترجمة يحيى حقي، ١٩٦٩) و (العالم الإسلامي المعاصر، القاهرة ١٩٧١) و(بين أوروبا و أسيا، دراسة في النظائر الجغرافية، القاهرة، ١٩٧٢) و(الجمهورية العربية الليبية، دراسة في الجغرافيا السياسية، القاهرة، ١٩٧٣) و(٦ أكتوبر في الاستراتيجية العالمية، القاهرة، ١٩٧٤) و(قناة السويس، القاهرة، ١٩٧٥) و(إفريقيا الجديدة، القاهرة، ١٩٧٥) و(موسوعة شخصية مصر . دراسة في عبقرية المكان من ٤ أجزاء، القاهرة، ١٩٧٥ – ١٩٨٤).

ولم يكتف جمال حمدان بذلك بل كتب عشرات الصفحات من خواطره، أتوقف أمام بعض منها، متأملا ومتعلما، حيث يقول، العرب بغير مصر "كهاملت" بغير الأمير، سيناء ليست مجرد صندوق من الرمال كما يتوهم البعض، وإنما صندوق من الذهب الأسود. مصر كانت دائما شعبا محاربا، ولكن دون أن تكون دولة محترفة حرب، لأنها محارب مدافع أساسا لا محارب معتد.

وعن إسرائيل يقول : إسرائيل ليست عنكبوتا، ولكنها بناء ملئ بالثقوب، يقوم على أرض أكثر امتلاء بالحفر، والعلل الأصيلة في مجتمعها هي نقاط قوة لنا في صراعنا ضدها، ونقاط ضعف محققة لها، غير أن إسرائيل، لن تهزم بالنقاط كما يقولون في عالم الرياضة، وإنما تهزم بالضربة القاضية. علي المسلم الذي يكتب عن العالم الإسلامي، أن يضع نفسه في مكان غير المسلم، خاصة الأوروبي المسيحي، ليس فقط ليكون موضوعيا، وإنما، ليستوعب وجهة نظر الآخر. نحن والأقباط شركاء، وإنهم أقرب المسيحيين في العالم، إلي الإسلام بمعني أو بآخر. .

ولم يكتف بذلك بل وينسف بكل ثقة ويقين ادعاءات إسرائيل بأحقيته المزعومة في أراضي ومقدسات فلسطين، وكذا يستشرف مبكرًا باقتدار مآلات واحتمالات الصدام والتصدع المبكر بين القوى العالمية المهيمنة على إدارة المشهد الدولي حينها ولكن قبل حدوثها بسنوات.

ومن الرؤى المستقبلية التي طرحها وتبدو في طريقها إلى التحقيق تلك النبوءة الخاصة بانهيار الولايات المتحدة، حيث كتب "حمدان" في بداية التسعينيات يقول: "أصبح من الواضح تمامًا أن العالم كله وأمريكا يتبادلان الحقد والكراهية علنًا، والعالم الذي لا يخفي كرهه لها ينتظر بفارغ الصبر لحظة الشماتة العظمى فيها حين تسقط وتتدحرج، وعندئذ ستتصرف أمريكا ضد العالم كالحيوان الكاسر الجريح".

كذلك كان أول من أشار إلى مدى تأثير البترول ليس فقط على المجال الاقتصادي، ولكن على المجال السياسي والاستراتيجي أيضا، وذلك في كتابه "بترول العرب"، وبالفعل ثبت كلامه، فكان البترول وسيلة ضغط فعالة استفاد منها القادة العرب خلال حرب أكتوبر ١٩٧٣.

كما تنبأ بانهيار الاتحاد السوفيتي في كتابه "استراتيجية الاستعمار والتحرير" عام ١٩٦٨، وبالفعل انهار الاتحاد السوفيتي عام ١٩٩١، كما قام في كتابه الشهير "اليهود أنثروبولوجيًا" بإثبات أن يهود إسرائيل ليسوا أحفادًا لليهود الذين خرجوا من فلسطين قبل الميلاد، وإنما ينتمون إلى إمبراطورية "الخزر التترية" التي قامت بين بحر قزوين والبحر الأسود، واعتنقت اليهودية في القرن الثامن الميلادي، هذا الأمر الذي أكده بعد ذلك "آرثر koestler" مؤلف كتاب "القبيلة الثالثة عشر" الصادر عام ١٩٧٦.

ونكر الأستاذ إبراهيم النجار (في مقاله الذي نشره بجريدة الأهرام "جمال حمدان.. درس في عشق مصر) أن جمال حمدان المؤرخ المصري، في (١٧ أبريل ١٩٩٣م) قد اغتيل ، عقب احتراق شقته في القاهرة، ووجد وقد احترق نصف جسمه، إثر تسرب غاز حسب الرواية الرسمية آنذاك، إلا أن شقيقه قال، إنه رأى أثار ضربة بأداة حادة في رأس جثة جمال، فيما لم تتجاوز الحروق منطقة الصدر.

كما ذكر شهود عيان، أن ثلاثة كتب انتهى حمدان من تأليفها اختفت من البيت، أهمها "اليهود والصهيونية وبنو إسرائيل"، كما اختفى أجنبيان أقاما شهرين ونصف في شقة تقع فوق شقة حمدان. فهل قتل حرقا أم بضربة على الرأس؟!

عن: الحوار المتمدن

جمال حمدان

فريدة النقاش

حلت الذكرى الثانية والعشرون للرحيل المأساوي للباحث الفيلسوف "جمال حمدان" الذي احترق في منزله بطريقة غامضة دون أن يجري أحد تحقيقا جديا في هذا الموت الفاجع، خاصة أنه بقي معارضا صلبا وغاضبا لكل السياسات التي انتهجها "السادات" و"مبارك" من بعده، وهي السياسات التي أدت إلى تقزيم مصر، وتجريدها من ريادتها وأدوارها، مع الحط من مكانتها في العالم وفي الإقليم، خاصة بعد انتهاج سياسة الانفتاح وتوقيع اتفاقيات الصلح المنفرد مع إسرائيل والتبعية لأمريكا.

لم يتذكر أحد "جمال حمدان" في هذه المناسبة أو غيرها بصورة لائقة إذ الضجيج بلا طحن كما يقال فهناك تكرار ممل لفكرة حاجة الشباب إلى قدوة، وقد كان "جمال حمدان" قدوة رائعة، وتجسيدا حيا لمجموعة من القيم الكبرى التي باتت نادرة، فبوسعنا أن نقول عنه إنه راهب العلم الذي اختار تخصصا غير شائع هو علم الجغرافيا الذي يعتبره – وفق مصطلحه علما ملحميا – فقمة الجغرافيا هي التعرف على شخصيات الأقاليم، هي نفاذ إلى "روح المكان" لنستشف "عبقريته الذاتية" والجغرافيا بالنسبة له لم تكن مجرد تخصص علمي، فهي فلسفة بنظرتها، وفن بمعالجتها، وعلم بمادتها. وعبر اكتشاف العلاقات الخفية بين ملايين التفاصيل في التضاريس وفي الحياة اليومية، أخذت "شخصية مصر" تتنفس في كتاب موسوعي سوف يبقى طويلا لتتعلم منه الأجيال حب الوطن عن معرفة حقيقية به، فالمصريون لا يعرفون شيئا عن مصر بمن فيهم المثقفون، إلا فيما ندر.

حقق "جمال حمدان" في عمله وسيرته ما كان يؤمن به من أن الجغرافي الجيد هو فيلسوف، فضلا عن أنه عالم يغلف علمه ومعرفته بروح شعرية عذبة وملهمة لا يملك من يتلقاها سوى أن يتأثر بها حتى لو لم يوافق على كل نتائج البحث بل ومنهجه وطريقته، ولابد أن نحسب له – حتى لو انتقدناه – أنه نهل بعمق ودراية تقريبا من كل العلوم الأساسية في العصر، بل إن حبه لمصر وافتتانه بشخصيتها لم يحل بينه وبين انتقاد المصريين بقسوة، ورفض الإعجاب بالذات مع شيوع مداهنة الاستبداد والطغيان والصبر المقيت عليهما عبر التاريخ، إذ حجبت المركزية والحكومة والبيروقراطية والعاصمة هذا التاريخ منذ البداية وشكلت دائما أطرافا أربعة للقبضة الباطشة باعتبارها الحقيقة الواقعة في تاريخ مصر. وكانت مصر أول أمة في العالم، وبنت أول دولة في العالم وأول إمبراطورية، ولكن أيضا، ومن أسف أصبحت أطول مستعمرة في التاريخ بعد ذلك، وقد كانت وظلت دائما نتاجا عبقريا لنداء النهر، ولقاء البحر، وفراغ الصحراء. ومن أسف أن هذا العالم الشاعر لم يعش ليشهد رد الشعب المصري في ٢٥ يناير ٢٠١١ ثم في ٣٠ يونيه ٢٠١٣ على كل أشكال الإذلال والهوان والاستبداد بموجتين مجيدتين من الثورة سوف يستكملهما في مستقبل الأيام.

يظل إنتاج "جمال حمدان" راهنا وسوف يبقى كذلك لزمن طويل، وأختار من مخزون راهنيته هذه قضيتين، الأولى هي دفاعه المجيد عن القومية العربية وانتماء مصر العربي، هذه القومية التي يجرى اختبار جدارتها الآن في مواجهة المشاريع التوسعية من صهيونية، وعثمانية وفارسية وشرق أوسط استعماري جديد، رأى جمال حمدان أن مصير العرب مصير حضاري، كما أن مصير مصر عربي سياسيا، فالعرب بدون مصر "كهاملت" بغير الأمير، ومصر لا مستقبل عالمي لها بغير العرب ويدلنا تطور الأحداث في المنطقة العربية على صحة هذا التنبؤ العلمي.

أما القضية الثانية فهي "النيل" الذى اعتبره "حمدان" جغرافي مصر الأول، هو موزع كل شيء وضابط إيقاع كل شيء، والصراع على النيل الآن مع إثيوبيا هو صراع وجود بالنسبة لمصر.

ليت شباب الثورة، وشباب مصر عامة يتعرفوا على شخصية وطنهم بعمق من إنتاج هذا المفكر الجغرافي العربي من مصر.

هذه المادة سبق ان نشرت في صحيفة المدى

صفحات من اوراق المفكر المصري جمال حمدان

سليم النجار

احتوت صفحات من اوراقه الخاصة لـ جمال حمدان على خمسة فصول رسم من خلالها خارطة مصر والعالم الاسلامي. لقد صنع حمدان بلده -عالمه الاسلامي- وراح يكتب عن اجزائه وتفاصيله، كما لو انه كتب رواية من خمسة فصول، وان قارئها سيجمع بين الحالات -الفصول- ليبني بناء كليا يصلح لان يكون رواية لعالم بعينه.

ويرصد جمال حمدان في الكتاب الذي اعده وقدمه د.عبدالحميد صالح حمدان الحياة الوسطية التي تصنعها البقعة المكانية، على الناس والحياة ومألوفها اليومي، وان هذا العادي والمألوف هو المواطن الدرامي -الوسطي- الذي يتلاءم والطبيعة السردية لاناس كان كل همهم ان يعلنوا صوتهم من خلال الممارسة اليومية، ولذلك لا تجد الصراعات الكبيرة، ولا تلك الصراعات الثقافية والعادية جدا، وانما تجد الوسطية الدرامية بين القوى الماضوية الضاغطة على حياة الناس، وبين الافعال العفوية اليومية التي تولد المخاوف والامال، والاحباطات والحب، والرؤية العيانية العابرة، والممارسة الخفية التي تشد الاجزاء المتناثرة من اواسط الحياة وهوامشها، وضمن هذا المناخ الذي غاب ويغيب عن الكثير من المفكرين والمؤرخين، استطاع المفكر جمال حمدان ان يلتقط العادي، المركز والمألوف الشاذ والغريب، والنادر الوافر والمتميز، فاظهر لنا اناسا من الذين نعرفهم ونحيا معهم، اناس همهم الاساس ان يقولوا، عبر المكان، انهم يتشكلون وعيا وممارسة يوميا بطريقة متكررة، فيرسخ لديهم اللفظ المركز، واللحظ المتكررة، واللغة المعيشية، والعبوات النامية، والحالات التي تنمو وهي تعاد كل نهار. ولذلك ليس لديه شخصية تاريخية ذات مجد كبير، ولا شخصية تافهة عابرة لا قيمة لها.

انما جل شخصياته من اولئك الذين تشكلوا وفق نمط معين من الحياة، ومن اولئك الذين لا تغيب عنهم قضاياهم ونواياهم ومصائرهم، لكنهم وهم يحيون هذه العادية وهذه الالفة مع المكان، ينمون على جانب الحقائق التي امليت والمواقف التي لم تحسم بعد، لذلك تجدهم يمارسون وجودهم العادي، الا انهم مشدودون الى قضايا اكبر، الى موضوعات سياسية وتاريخية. المفكر جمال حمدان وهو يلتقط هذه الحيوات الصغيرة العابرة في اوراقه الخاصة، التي لا ترى الا لمن له عين رائية ومدققة، انما يصنع لنا المناخ المكاني الشعري الذي تحيا به بقعته الجغرافية التي خلقها مكانيا وسكانيا واهتماما حياتية.

يشكل د.جمال حمدان مناخ مكانه من مفردات ثلاث:

المفردة الاولى: هي المناخ الحربي، والمقاومي الذي يتشرب داخل مفردات الحياة اليومية وقد تحول الى ما يشبه الثوابت المعاشية والحياتية، بحيث اصبحت المفردة المهنية ذات البنى المتعددة التي تمارسها الاسرة الواحدة، وكأنه من يومياتها المعلنة التي تشمل بها الاكل والكلام والحاجات والنوم والعلاقات.

ومفردة الحرب هذه اذ تشكل بصيغ واشكال شبه ثابتة، تفتح لغتها للجديد، وللمتطور، وحمدان لا يتعامل مع الجديد فيها، مع مطلقاتها الكلية وقد بدأت تمارس حضورها اليومي من خلال افعال في الشارع او في البيت، فاصبحت الحرب حياة معيشية ولكن مرفوضة ومحببة معا.

المفردة الثانية: هي اللحظة المكانية المشحونة بالحال، فالمفكر جمال حمدان لا يبتدئ بالمكان كما لو انه بدأ الان، وانما يبتدئ معه وهو في لحظة تشكله النهائي، الوصول الى نهاية الشوط، الحدث في اللحظة التي يتفجر فيها او يعلن عن نفسه في موقف فكري مكتمل.

المفردة الثالثة: التي يكتبها جمال حمدان لا يمكنها ان تصبح شريحة من نوع تاريخي متميز، إن هو امتد باللحظة التاريخية الى الماضي او الى المستقبل، انه يتعامل مع موقف نضج ووصل الى نهايته للمكان في هذه الاوراق الخاصة، خاصية فنية، هو اندماجه مع المشهد البصري، بمعنى ان للمكان تاريخية شاملة: ارضا عربية، وانا سا عربا، وزمن عربي، لكن هذه المكانية لا تهتم بالتفاصيل الدقيقة، بقدر اهتمامها بالتفاصيل الزمنية، اي الزمن النفسي فقط.

هكذا اراد المفكر والمبدع الراحل جمال حمدان ان يدفع القارئ العربي الى ان يتطلع في مرآة ذاته الى الوراء، فيرى اكواما من فنون القول والممارسة، وقد تحاورت وتجاورت، واشتد الحق فيما بينها، ووضح الفكر في الفصل بين فصولها، حتى اذا ما استقر الامر على شيء من سوء الفهم قال الابداع قولا فاصلا، وحسب ذلك القول فكرا، علينا جعله سنة نطل بها على قرون قادمة.

عن: الاتحاد الاماراتية

manarat

WWW. almadasupplements.com

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير

فخري كريم

رئيس التحرير التنفيذي

علي حسين

سكرتير التحرير

رفعة عبد الرزاق

الاخراج الفني

حيدر الكواز

المنارات

طبعت بمطابع مؤسسة المدى

للاعلام والثقافة والفنون

http://www.almadapaper.net - E-mail: almada@almadapaper.net

جمال حمدان والعراق

يتغنى إلى حد الشبق الروحي الصارخ شهيد العلم والجغرافية الاستراتيجية الدكتور جمال حمدان ببلده مصر، كنانة العرب، وعروس الدنيا،، مخلّدا أياها بسفره العظيم (شخصية مصر، قراء ة في عبقرية المكان)، في عشرة ألاف صفحة رقمية رصينة متفوقة باللغة وا لعرض و الفكر، وليس من شك أن مصر التي وصفها كثير من رواد الجغرافية من أنها هبة النيل أو هي هبة الإنسان المصري ذاته على حد تعبير (أندريه جيد) باعتبار أن مصر اكتشفت الا بدية كما يرى... لا شك أن مصر بجغرافيتها تحولت إلى نقطة تواصل افريقي أسيوي عربي نيلي متواصل التأثير والاثر، ولكن ليس ذلك بدعا في الجغرافية السياسية من حيث المبدا، أي من حيث أهمية الموقع وعبقريته وسره، فإذا كانت مصر تتمتع بعبقرية المكان، فإن دراسة التاريخ العراقي تؤكد أن (عراقنا) هو أرض العبقرية!

غالب حسن الشابندر

لم يكن العراق بحق وحقيقة بوابة العرب الشرقية وحسب بل كان نقطة إنطلاق الفتح الإسلامي برمّته حتى باتجاه الغرب، ولم تكن بغداد عاصمة مؤقتة بل بقيت مركز الخلافة رغم التشظيات والتبعثر حيث كانت الخلافة تعاني من فقر روحي وشعبي وفكري وسياسي، ولم تكن أرض العراق تتمركز في نقطة متألقة بل كان العراق كله متألق، وإلاّ كيف تتصارع وتتنافس ثلاث حواضر في وقت واحد، الكوفة و بغداد والبصرة، لتنتشر في ربوعه مختلف المدارس الفكرية، عقل ونقل، راي وحديث، ومن هنا ليس غريبا أن يعرّف العرب العراقي بـ (أخ العرب من أهل الرأي)، ولم يكن ذلك غريبا عندما تصب مدرسة الأثر جا م غضبها وخوفها من أهل العراق!!، ولم يكن المغول أبناء حضارة ولكنهم خرجوا منه أصحاب امبراطورية عظمى، وكأنهم يحققون مجد الاسكندر المقدوني الذي عجز عن تطويع الارادة العراقية باعترافه لارسطو المسكين.

جغرافية تصنع العبقرية، نهراها وسهولها وجبالها وصحرائها ليست بالطاردة بل كانت وسوف تعود مؤل الهاربين من الطبيعة والسياسة، وكأن علي عليه السلام عارفا بهذه الجغرافية الفذة فكان يقول: العراق أرض الرجال والمال، فشد اليها الرحال ومن هناك خاض أضخم تجربة سياسية لم تدرس لحد الان حق الدراسة. غرين النيل وأخلاصه وقت فياضانه يقابله غضب الفرات وهيجانه ومجهولية إنزياحاته المائية الهادرة، ولكن رغم ذلك استطاع الفلاح العراقي أن يقهر الفرات، حتى تحولا إلى صديقين وفي الوقت ذاته عدوين، فيما تكتسح الثلوج جبال كردستان لتشكل مدرسة تحدي أخرى لفلاح الشمال، ولا تلي الصحراء من جهة الغرب تسف بريحها الهائجة تنسف الامال، وفي خضم هذه التجربة الجغرافية القاسية ينبعث كلكامش يبحث عن الخلود، فيلقى ذلك العراقي الذي يهون عليه غروره، فكان (أنكيدو) يغني له إ نشودة الحياة الجديدة، مستلا من حنان تلك البغي التي ربّته على قيم العراق الخالدة التي تجمع بين القوة والمرونة في التعامل مع الاشياء مهما كانت جليلة أو صغيرة.

رحم الله علي الوردي، فما أنصف التاريخ في العراق عندما لخصه بحرب ضروس بين البداوة والحضارة حيثي ينهي النتيجة بغلة الأولى على الثانية بشكل نهائي!، وكأنه لم يكن خريج أرض الرافدين، وكأنه لا يتحسس قوانين حمورابي، وكأن نسي أن جغرافية محصورة بين الجبال والصحراء وتتوسطها سهول وغرين تكون مطمع الغزاة والقواد وأصحاب الاحلام الإمبراطورية، وجغرافية تطل بنا من الشمال على أوربا ومن الشرق على عمق أسيا، ومن الجنوب على بحار العالم، ومن الشرق تتواصل مع بحر الابيض المتوسط في وسط عقد جغرافي متين يدعي الكثيرون انه يشكل وحدة ثقافية قائمة بنفسها، فكان وسط عقد جغرافية متلونة الاطراف، متعددة الثقافات، متنوعة الأعراق... مثل هذه الجغرافية هي حقا جغرافية تحتضن العبقرية وقبل ذلك تصنعها.

الأمن القومي العراقي - وأنا اتحدث عن عراق الدولة العصرية - تحيط به مخاوف الاختراق والاجتياح والابتلاع، إذ تحوطه تركيا وإيران والسعودية، وكل دولة من هذه الدول إذا تمكنت من مساحة عراقية متصلة بها ستغدو فيه قوة قاهرة ومتحكمة، وتنبعث من داخله مخاطر التشتت والاحتراب والتشضي، فالتعددية الهائلة رغم كونها مصدر خير عميق في الأصل، ولكنها قد تتحول إلى مسمار في نعش الامن القومي، وليس من شك أ ن هذا اللاتجانس التاريخي في الحقوق والواجبات الذي أستنته داخل العراق حكومات القوة الغاشمة، من أموية إلى عباسية إلى عثمانية، ولد تاريخا مشحونا بالعتاب على أقل تقدير بين المكونات الرئيسية لشعب الرافدين... ومن هذا وذاك ينبع خطر عميق يهدد الأمن القومي العراقي بشكل مباشر!

ولكن رغم ذلك هناك اصرار عراقي أن يكون العراق لأهله، ويكفي مثل هذا الشعور ليكون دافعا وطنيا خلاقا للتغلب على كل هذه المهلكات الأمنية القومية. ولكن أعترف وبمرار ة إن ذلك يحتاج إلى حكومة قوية شجاعة، تتمتع بالذكاء والتجربة والحنكة، وقبل ذلك تجعل من العراق همها الاول والأخير.

تجتذب جغرافيتنا من كل لون روحه الفتية، عرب وفرس وأتراك، مسلمون ومسيحيون وصابئة وكلدان، سنة وشيعة، كل يمتلك عمقه التاريخي المتجذر، ليس طارئا ولا عارضا، له شرف الاولية في التأسيس والبناء والتشييد، فكانت حقا جغرافية تلخص التاريخ الحضاري لعالم الشرق، معلنة ثورتها على بؤس التجانس العرقي والحضاري والروحي والفكري، فالتجانس يظل حبيس نفسه، فيما التعدد يخلق العالم المتنوع.

أرض العبقرية...

هذا هو عنوان الجغرافية العراقية في تصوري، ماء وفيرو اعتدال مناخ وتجارب حضارية عريقة وارض خصيبة وتراث فكري سجالي واجتذاب من الخارج وعودة الى الداخل ردا على الهجرة الجبرية وكثافة سكانية وتنوع عرقي واثني وديني ولغوي وحدود تتاخم حضارة كبرى، ومدخل للحفاظ على هويات، فخليجية الامارات مستمدة من عراق قوي وليس مستمدة من غنى مادي دشن حظه من التاريخ متأخرا!

وكنت أقول: مصر قلب الامة العربية، وسوريا رئتها، ولكن العراق عقلها القوي .